

ما هي « الإهمس » ؟

ما هي هذه « الإهمس » التي صيغت غائدي قديماً وطوحت
لها تلك القوة التي صنع بها ما لم يصنعه زعيم من زعماء بلاده ؟
إننا إذا فهمنا منها مجرد حب السلامة من طريق المسألة
كانت أسهل مذهب من مذاهب الحياة يدعى إليه ويستجاب .
لأن حب السلامة غريزة في جميع الأحياء .

ولكننا إذا فهمنا « الإهمس » ، هذا الفهم كان ذلك أخطأ
الخطأ في عرفانها على حقيقتها ، لأنها ليست أسهل مذهب
يدعى إليه ويحجب ، بل هي في الواقع أصعب المذاهب في
الدعوة ، وأصعبها في الاستجابة ، وأعسرها على التنفيذ
والمراعاة .

فهى أصعب من الدعوة إلى القتال . لأن الدعوة إلى
القتال لم تعد محيياً في وقت من الأوقات ، وهى أصعب من
الدعوة إلى الشجاعة ، لأن الشجاعة قد تكون مطاوعة
لدواعي القطرة ، أو دواعي الحماسة الاجتماعية ، فلا تعد
الدعوة إليها محيياً في كل حين .

هى أصعب من هذه الدعوات وأعنفها ، لأنها تتطلب

مغالبة للنفس لا تتطلبها دعوة أخرى ، وقد تتطلب هذه المغالبة بغير نحر لصاحبها وبغير صدق من الإعجاب في نفوس أبناء قومه ، ولعلها على تقيض ذلك تعرضه للخزي والازدراء . وقد تنحصر الشجاعة في ضبط النفس واستجماع قوتها في وجه الخطر ، ولكن ، الأهمس ، تكلف العامل بها أن يضبط نفسه ، ويستجمع قوته في وجه الخطر ، وفي وجه الإغراء وفي وجه السمعة السيئة . فلا يهمه أن يوصف بالجين إذا كان هو على يقين أنه ليس بجبان وأنه لا يخاف .

وإذا قلت : لا خوف ، فقد حشرت الشجاعة من جميع أطرافها ، سواء أردت الشجاعة في المسائل الجسدية أو أردت الشجاعة في المسائل الأدبية .

ولسكنك لا نحصر ، الأهمس ، بهاتين الكلمتين ، لأنها تنفي الخوف وتنفي معه الكراهية . فلا خوف ولا كراهية . بل شجاعة ومحبة ، وهاتان الخصلتان هما ، الأهمس ، في الباب . وقد قال غاندي غير مرة : إنه يفضل العنف على الجبن والفرار من الخطر . قال ذلك في إبان الفتنة الهندية سنة ١٩٣٠ ، وقال يومئذ إنه يفضل العنف ألف مرة على مسح التوسع برذيلة الجبن والفرار . ومن كان لا يزال أن يقتل ويقتل فهو خير ممن يفر من التزال ، لأنه يخاف القتل في مشتهر

القتال . وقد كان يعلم الآثمين أنفسهم أن الفرار من الرذيلة أحجى بهم من الفرار من الموت : جاءه متهم مرة في جريمة سرقة واعترف له بالجريمة . فقال : عجباً . إنك كنت تعلم أنك تسرق وكنت تعلم العقاب على السرقة فلماذا فعلتها ؟ قال الرجل مقتنعاً : لأنني لا بد أن أعيش . . . فأعاد غاندى كلمته مقتنعاً أيضاً : لا بد أن تعيش !! لماذا ؟ يريد أن يقول : إن العيش مع الرذيلة خير منه الموت .

فهذا الالهمس ، هي ترك العنف شعوراً بالقوة والقدرة النفسية وليست هي ترك العنف شعوراً بالضعف وعجزاً عن المقاومة . وقد كانت دعوة الالهمس ، أصعب الدعوات في الهند خاصة ، حين تصدى غاندى للتبشير بها وإحيائها في الآداب الهندية . لأن دعوته قد صادفت الثورة الوطنية في إبانها ، وصادفت كفراناً من أبناء الهند بعقيدتهم القديمة في السماحة والمسالمة ، إذ كان فيهم من يعال سطوة الإنجليز وخنوع الهنود بأن الانجليز يأكلون اللحوم ، وأن الهنود يحرمون أكلها ويعيشون على غذاء النبات ، وشاعت بينهم أغنية بهذا المعنى يرددونها في المدارس والمحافل ، فكانت دعوة غاندى يومئذ تقاوم تيار الشعور في الهند نفسها ، وإن كانت من أعرق الدعوات في البلاد .

ولم يكن غاندى نفسه يحمل ما فى غذاء اللحوم من الفائدة الجسدية . فقد كان يرى من علاج الجرحى أن آكلى اللحوم يقاومون النزف ، وتندمل جراحهم قبل اندمال الجراح فى آكلى النبات ، وكان يرى أن القوة البدنية أعم وأظهر فى آكلى اللحوم . ولكنه كان يقول : إن القوة الإنسانية لا تأتى من قوة العضلات ، بل من قوة الإرادة . وأن غلبة الروح على البنية أليق بالإنسانية من غلبة البنية على الروح .

وكل حين عرضة لأسئلة التعجيز أو التنطع من طلاب الفتاوى المتمحلين . فلم يعدم غاندى عشرات الأسئلة من هذا القبيل ، إما تعجيزاً له ، أو رغبة فى استيفاء العمل بنصيحته ، فمنهم من كان يسأله : هل يجوز لى أن أقتل الثعابين . أو يجب على أن أتركه يمضى لسبيله ؟ ومنهم من كان يسأله : هل تتفق الهند على جيش مسلح أو لا تتفق عليه ؟

فكان يجيب على كل سؤال من هذه الأسئلة بما يناسبه ويحصره فى حدوده . كان يقول لسأله عن الثعابين : إنك لا تقتل ثعابين الغضب والجشع التى فى صدرك ، ثم تبحث عن الثعابين التى قد تصادفها فى طريقك . إن هذه الثعابين ليست بمشكلة خاقية ، وإنما المشكلة الخاقية أن تقتلع جنود السكراعية والاندفاع مع الشهوة والهوى من صميم نفسك . وأنت

في حل" بعد ذلك من كل صنيع تدفع به الأذى في غير عداوة ولا انتقام .

وكان يقول لسائليه عن الجيش : إن مسألة الجيش مسألة سياسية يحلها السياسيون ، ولكن ، الالهسا ، مسألة خلقية يحلها كل إنسان لنفسه ليضبط عنانه في يمينه ، وهو المرجع في كل فتوى تعرض له متى اطمأن من وسواس الجبن والكراهية والكبرياء .

هذه هي خلاصة ، الالهسا ، كما كان غاندى يبشر بها أبناء أمته ، وأبناء كل أمة تصل إليهم دعوته .
وهي ولا شك دعوة لا تقبل كلها ، ولا ترفض كلها ، ولكنها خليفة ألا تبخس حقها بسوء التصور أو سوء التطبيق .

وقد توقف كلها على فهم المراد بالعدوان أو سبب العدوان . فربما كان العدوان الأكبر في ترك المعتدى يفعل ما يشاء ، وهو في أمان من سوء عقابه .

وقد صدق غاندى حين قال : إن العقل الذى كشف عن ، الالهسا ، عبقرية أعظم من نبوت وأشجع من ولنجتون .
ولسكنه قد يكون كذلك ، ولا يلزم ضرورة أن تكون هذه العبقرية في عصمة من الخطأ والإسراف .

«الاهمّاء» من الوجهة العلمية

في الوقت الذي قام فيه غاندى بالدعوة إلى السلام واجتناب المقاومة العنيفة ، كانت أوربة تضطرب بدعوة أخرى تناقضها تمام المناقضة ، وهى دعوة القوة والقسوة ، أو دين القوة كما سماه أتباعه ومروجوه .

وكانت الدعوة إلى دين القوة تلبث من جانب الفلاسفة والمفكرين ، كما تنبث من جانب الساسة وقادة الجماهير . فانتشرت النازية والفاشية فى أوربة الوسطى وأوربة الجنوبية ، وقام لها أنصار فى البلاد التى تزعزعت فيها مبادئ الديمقراطية ، أو عجزت فيها الديمقراطية عن حل مشكلاتها وتعزيز الرجاى فى تحقيق مثاها العليا .

وكانت الشيوعية تحارب النازية والفاشية ، ولكنها لا تخالفها فى الإيمان بالقوة والاعتماد عليها وحدها فى إتمام الانقلاب الذى يقضى على نظام رأس المال ، ويقيم النظام الشيوعى فى مكانه .

وكان من الطبعى أن تثير هذه الدعوة المطبقة مخاوف أنصار السلام ، ولاسيما بعد الحرب العالمية الأولى التى ابتلى

فيها الأوربيون من شرور الحرب بما بغضها إليهم ، وضاعف مساعيهم في منع الحروب وتقرير مبادئ الوساطة والتحكيم . فنشأت جماعات الأمم ، وكثرت دعاة السلم والمسالمة ، وتصدى للكتابة في هذا الغرض نخبة من أقطاب المفكرين وحملة الأقلام . وتحول الأمر إلى عقيدة شعورية لفرط النفور من الحرب ، وشدة الحاجة إلى إيمان يقابل إيمان المبشرين بدين القوة وشرعية العنف والقسوة .

وانتقل صدى «الاهمسا» إلى أوربة فوصل إليها في أوانه ، ودان بها بعض كتابها على طريقة الغربيين في كل دعوة ، وهي عرضها على العقل من جانب البحث والعلم ، غير مكثفين بالبشارة الروحية أو المواعظ الدينية على طريقة دعاة «الاهمسا» من الهنود .

ومن خيرة الكتاب في هذا الغرض — على هذا النحو — ريتشارد جريج Gregg ، صاحب كتاب «قوة اللاعنف أو المسالمة» ، «The Power of Non-Violence» .

فإنه قد حشد لتعزير هذا المذهب كل ما يمكن أن يحشد له من تقارير العلوم الحديثة ، وفي مقدمتها علم الحياة وعلم النفس ، واستشهد بتجارب التاريخ كما استشهد بكل تجربة نافعة من تجارب الزمن الأخير .

ومن أمثلة آرائه التي تدل على منحى تفكيره ، قوله في
تعليل الخوف والغضب : « إن لها - من الوجهة الفزيولوجية -
وظيفة نافعة وهي إعداد البنية للعمل عند الحاجة إلى الحرب أو
القتال ، ويشتمل هذا الإعداد على امتناض قوى البنية
وحفزها بجملتها : دماغاً وأعصاباً مهيطة على العضلات
الخاضعة للإرادة ، وأعصاباً مهيطة على العضلات التي تعمل
من تلقائها ، أو جهازاً للتنفس ، أو نظاماً للدورة الدموية ،
أو إقراراً من بعض الغدد التي تدخل فيها الغدة الدرقية والغدة
الكظرية والكبد ، لتقذف في مجرى الدم من المواد ما يصلح
لتوليد الطاقة والحركة . وإذا كانت الأفكار على الأغلب الأعم
في طبيعتها من قبيل الخطط التي ترسم مسائل العمل الممكنة ،
كان من شأن الخوف والغضب أن يعمل في العقل كذلك ،
بحيث يمكن أن يقال أن الخوف والغضب يعتبران حالة
انتقال من نشاط أقل إلى نشاط أوفر وأقوى . »

وعرض للتأحية النفسية ، فاستشهد بقول العالم النفساني
شاند Shand : إن الدهشة تحجب شعور النفور والاشمئزاز
والاحتقار بما هو موضوع للدهشة ، فإذا اعتدى إنسان على
إنسان فقاومه المعتدى عليه عنفاً يعتف وقسوة بقسوة ، فإذا
يكون من أثر ذلك في نفس المعتدى ؟ إنه يزداد إيماناً بصحة

الوسيلة التي استخدمها واعتبارها مرجعاً صالحاً لتسوية النزاع بينه وبين خصمه . فلا يتزلزل اعتقاده بحقه فيما عمل . بل يتأكد عنده هذا الاعتقاد وينشط للبضى في عدوانه . ولكنه إذا اعتدى فلم يلق من المعتدى عليه مقاومة من طبيعة اعتدائه ، فقد يقع في روعه لأول وهلة أنه جبن ومهانة وضعف من ذلك المعتدى عليه . ولكنه لا يلبث أن يعلم من مظهره ومخبره أنه ليس بالجبان ولا بالمهين في نظر نفسه حتى تأخذه الدهشة ، فيكف عن الاحتقار والترفع ، ويرجع إلى نفسه فيحاسبها على اعتدائه ، ويستطيع أن يدرك في هذه الحالة أن الاعتداء مخجل لصاحبه ، وليس بالمرجع المعترف به في معاملة غيره .

ولا نزاع عندنا في صواب هذه التقارير من الوجهة الفزيولوجية أو الوجهة النفسانية ، ولكنها فيما نرى محل نزاع كثير في تسويغ ، الأهمسا ، على إطلاقها ، أو في القول بأن المقاومة من جنس العمل أمر لا تدعو إليه الحاجة ، في حياة الفرد أو حياة الجماعة .

فقد تكون عوارض البنية التي تنفع الإنسان في حالة الغضب أو الهرب تدبيراً فزيولوجياً لا تدعو الحاجة إليه الآن كما كانت تدعو إليه أيام الهمجية الأولى ، أو قبل هذا الطور من

أطوار الحضارة ، وهو طور لا ينتفع فيه الانسان بالغضب والخوف على ذلك المآل ، ولا يحتاج إلى الحرب ولا إلى التزال كلها غضب أو خاف .

لكن الواقع أن الأخلاق جميعاً تفتر بحالات جسمية من هذا القبيل ، وإن الدواعي الجسمية تد تزل ويبقى الخلق لازماً بعد بطلان الأسباب التي أوجبت دواعيه الجسمية . ومثال ذلك خلق الأنف ، وهو كما يدل عليه اسمه خلق كان في نشأته مقترناً بحركة تلاحظ على الأنف خاصة فإن الانسان إذا أنف في عصر الحضارة من بعض ما يسمع به أو يراه ، شخ بأنفه أو قبض منخريه أو أشاح بهما إلى هذا الجانب أو ذاك ، كأنما يتق رائحة كريهة يعافها ويود الابتعاد عنها .

وكان أصل هذه الحركة الجسمية فعلاً هو انقلاء الروائح الكريهة التي لا يحب الانسان أن تسرى إلى صدره ، ثم أصبحت هذه الحركة الجسمية ملازمة للأنف من الأشياء التي لا رائحة لها ولا علاقة لها بالمنخرين أو بالنفس الذي يدخل إلى الرئتين .

كذلك يصدق الانسان أحياناً علامة على الامتعاض والاستهجان ، وما هي في الأصل إلا حركة جسمية تعليلها

هناج غده كعاب عند مقابلة النظر أو الشم لشيء لا يقبله
الحرف . ثم انتقلت من الحسوسات إلى الأشياء التي لا يقبلها
الحرف أو الصغير .

ويتناول النفس في وقت في مراتب أربعة
والكبرياء . وكان ذلك ما يتفعله أمام خصمه ليروعه بامتداد
أعضائه وقوة جسمه . ولكنه الآن يتناول كل عضو بقوة
نفسية أو جسدية . وقد تكون القوة نفسية محضاً لا تقع
عليها العين .

ويشير الإنسان بظهر يده في غير جهاد ولا تكرار إذا
استخف بأمر من الأمور ، وكأنه يدفع شيئاً بلغ من خفته
وهوانه ، أنه يدفع بأيسر حركة من أصابع اليد الواحدة .
وهو إذا استخف عقله ، أو استخفت نفسه بذلك
الامر ، لا يدفع شيئاً يدفع باليدن على أية حال .

والحركات النفسية قد تقترن بحركات جسدية بطلت
حكمتها أو بطلت موجباتها ، الفيزيولوجية ، ولكن بطلان
تلك الموجبات قد ينال على بطلان الحركات النفسية التي
تلازمها . ولا يفيد أن الغضب والخوف مثلاً لا يتفعلمان اليوم
كأنهما عرض الجسدية التي لانهما زماناً حركياً كانت عاقبة
من الوجهة الفيزيولوجية ، ثم بطلت ففعلها في عصر الحضارة
من هذه الوجهة .

فإن الغضب والخوف قد يقعان اليوم من الوجهة النفسية ، وإن لم تستفد بنية الإنسان من هياج الغدد أو تيقظ الأعصاب وتنبه الدماغ .

أما أن المعتدى يخجل من اعتدائه إذا رأى السباحة من المعتدى عليه في غير حين ولا استكانة ، فذلك صحيح في كثير من المعتدين ، وله ولا شك أثره في تأنيب الضمير وتعويده السكف عن العدوان ، وقلة الاعتزاز به والالتجاء إليه .

ولكننا ، سواء حدث هذا أو لم يحدث ، لا يصح أن نهم منه أن الخير قوة ، سلبية ، لا عمل لها إلا أن تترك الشر يعمل ثم تقابله بالسباحة والإغضاء .

فهل قصارى الخير أنه لا يقاوم الشر ؟ وهل من حق الشر وحده أن يبدأ بالعمل ويتحدى فيه ، وأن تترك له أن يخجل أو لا يخجل من عاقبة عمله ؟

ألا يوجد ثمة نوع من السكج والجزر يعيد المعتدى إلى ضميره فيشعر بتأنيبه ويرجع عن عدوانه ؟
ألا يلزم أن يشعر المعتدى بعجزه عن الاعتداء في كثير من الأحيان ؟

أليس هناك فرق بين من تأصلت فيه ضراوة العدوان وبين من يستسهله لأمان عقباه ، وهو على استعداد للرجوع

عنه إذا لقي المقاومة من أول اعتداء ؟ . . .
ألا يكون الخير خيراً إلا إذا ضربه الشر فصفح عنه ؟
ألا يجب على الخير أحياناً أن يضرب الشر وهو
خير لا يزال ؟

فإذا قصرنا الخير على المساحة ، أو جعلناه فضيلة سلبية
أو فضيلة مجاوبة ، فقد يصح على احتمال من الاحتمالات أن
الكف عن مقاومة الشرير تصلحه في حالات ، ولا تصلحه
في حالات .

وينبغي أن تهدينا دهشة الشرير من الكف عن مقاومته
إلى حقيقة نفسانية أخرى جديدة بالاعتبار في معاملة
الأشرار ، وهي أن هذه الدهشة تدل على إيمان متأصل في
النفس الانسانية بأن رد العدوان إليها جزاء معقول يصيبها
بالحق . فهو من ثم لا يضربها بالشر ولا يملئ لها فيه ، كلما
اعتدت فقبولت بمقاومة الاعتداء ، وبخاصة حين تجيء
المقاومة من المجتمعات التي تتولى صيانة نفسها بأحكام
القوانين ، لاتقاء البواعث الشخصية ، هنا وصدور الحكم
من ليست له فيه مصلحة أو دافع انتقام .

أما إذا اعتبرنا الخير قوة عاملة ، أو قوة إيجابية ، فمن

الواجب إذن أن تعمل وأن تزيل الموانع من طريقها ،
وكثيراً ، ما تكون إزالة الشر وإزالة الشرير شيتين متلازمين .
وأيما كان الأثر في نفس الشرير فما لا شك فيه أن إزالة
شرير من العالم أريح للعالم من إزالة خبير انتظاراً لإصلاح
شرير . لأن بقاء الخبير المضمون أريح للعالم من الرجاء في خير
فقط ، قد يكون وقد لا يكون .

• • •

لكن العبرة في مذهب ، الإهمسا ، بعد هذا كله ، هي
أن المذاهب الإنسانية تتوازن وتتقابل ، وينطلق أحدها إلى
أقصى الشدة فينتقل الآخر إلى أقصى اللين .
فـ ، الإهمسا ، معقولة إذا كان في العالم مذهب ينادى بأن
الفسوة دين مقدس ، وأن القوة الغاشمة مقطع الحق كله ،
وأن البطش بالضعفاء حق مطلق للأقوياء . وأن العلاقة بين
القوى والقوى لا تكون إلا علاقة نزاع وغلاب .
هذا الغلو في العنف يقابله ذلك الغلو في اللين .

ولابد من قوام بين الطرفين النقيضين ، وهو قوام
الامر الذي أخذت به العقيدة الإسلامية . فلا اعتداء
ولا قبول للاعتداء ، وإذا صفحت فذلك حق لك ، ونسكته
ليس بحق عليك في كل حال .

« ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . . »
« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم . . »
« ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو
أقرب للتقوى . . »
« إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . »
« فمن تصدق فهو كفارة له . »
« وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . »
« وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم
والله غفور رحيم . . »

في هذا القوام بين طرف العنف وطرف اللين صلاح
الآخيار والأشرار . فالعدوان ممنوع ورد العدوان حق ،
والصفح عنه جائز لمن يطيقه أو لمن يراه .
وبهذا يخرج الخلق من « الآلية » إلى مجال التصرف
لإنساني الذي يليق بذوى النفوس والعقول . فلا عدوان
في كل حال ، ولا مسالمة في كل حال . لأن هذا وذاك عمل
الآلات لا تفرق بين موضع العنف وموضع اللين ، وإنما
كون الخلق خلقاً حين يتعالى عن صنيع الآلات .
والإنسانية بحمد الله لا تأخذ كل ما يقوله الدعاة ولا تقبذ

كل ما يقولون . بل هي لا تأخذ ماتظن أنها أخذته ، ولا تنبذ ماتظن أنها نبذته . وإنما يخلص لها ما تعرفه وما لا تعرفه من تلك الدعوات .

وفي ذلك آية شاهدة على أنهم جميعاً مسوقون لما يرايدهم لا لما يريدونه . أو هي آية شاهدة على عناية من فوق إرادة الإنسان .

وإذا ألقى هذا الصيدلى فى بوتقة الدواء عقاراً غير صالح ، وألقى ذلك الصيدلى فيها عقاراً آخر غير صالح ، ثم خرج من هذه العقاقير كلها دواء فيه صلاح ، فذلك دليل على الطب ، ودليل على الطبيب .